-١-

الأرضُ تدورُ دورةً من الغربِ إلى الشَّرقِ في كلِّ أربعٍ وعشرينَ ساعةً، فيكونُ الليلُ والنهارُ، ودورةً كلَّ ثلاثِمئةٍ وخمسةٍ وستِّينَ يوماً، فتتأتَّى عنها فصولُ السَّنةِ؛ وهي: الربيعُ، والصيفُ، والخريفُ، والشتاءُ، وما زالت الطبيعةُ محافظةً بذلك على نظامِها الطبيعيِّ.

أمّا البشرُ فقدْ سَنَّ عقلاؤُهم والمتمدِّنُون منهم أنظمةً لهم؛ لِحفظِ حقوقِهم ومصالحِهم المدنيَّةِ والعمرانيَّةِ والعموميَّةِ والخصوصيَّةِ، وغيرِ ذلك.

فالأنظمةُ المدنيَّةُ والشرائعُ الدّوليَّةُ والقوانينُ العمرانيَّةُ رَافَقَتِ الإنسانَ مُنذُ وُجِدَ، ولَيْسَتْ هذِه الأَنظِمةُ من حاجاتِ البشرِ ولا هي محصورةٌ فيهم فَقَطْ؛ بلْ هي من ضروريّاتِ كلِّ ما نراهُ في هذا الوجودِ.

.٢

ولا يَسَعُ الواقفَ على تواريخِ القدماءِ إلّا التصريحُ بأنّ كلَّ أمَّةٍ حافَظَتْ على نُظُمِها، وسَارَت وَفقَ قوانِينِها حازَتْ مقاماً من المجدِ والعزِّ والرقيِّ، وأنَّ كلَّ مَنْ خالفَ تلكَ الأنظمةِ من تلكِ الأُمَمِ والدُّوِلِ انقلبَ عِزُّها ذُلّاً وهناؤُها شقاءً وارتفاعُها سُقوطاً وتقدُّمُها تأخُّراً.

ويُقال: إنّ دولةَ البابليِّينَ سقطَتْ؛ لأنَّهم غَفَلوا عن واجباتِهم نحوَ الشريعةِ الدوليَّةِ والنِّظام، فهبطوا وخسِروا مملكتَهم العظيمةَ التي أجمعَ المؤرّخونَ القدماءُ على أنَّها سيِّدةُ الممالكِ ودُرَّةُ الأمصارِ.

.٣

وجديرٌ بكلِّ فردٍ يُحبُّ شعبَهُ ويَغارُ على وطنِهِ أنْ يحافظَ على قوانينِ بلادِهِ، فمتى تحسَّنتْ شؤونُ الأفرادِ تحسّنتْ شؤونُ الدُّولِ والشُّعوبِ.

وعلى الإنسانِ رئيساً كان أو مرؤوساً، غنيّاً أو فقيراً، عالِماً أو جاهِلاً أنْ يجدَ في نفسِهِ دافعاً يدفعُهُ إلى المحافظةِ على نِظامِ البلادِ وقانونِها؛ لأنَّ ضرورةَ النظامِ والمحافظةِ عليهِ ضرورةُ الهواءِ والماءِ والشّمسِ والطّعامِ للإنسانِ.

(١)

كانَ من حُسنِ تدبيرِ القائمينَ على مدرستِنا أنَّهم خصَّصوا لنا ساعةً في الأسبوعِ للأشغالِ اليدويَّةِ، وتلكَ السَّاعةُ كانت من أمتعِ السَّاعات عندي، فقد كانَ لنا مَشغلٌ مجهَّزٌ بأحدثِ أدواتِ النّجارةِ والحفرِ في الخشبِ، وتجليدِ الكتب، ولكن كانَ يُسعدني أنْ أنسى نفسي حينَ أنكبُّ بفكري وقلبي وعضلاتي على خشباتٍ في يدي، آناً بالمِنشار، وآونةً بالمنجلِ أو الإزميل، فإذا بها تتحوّل بالتدريج طاولةً أو إطاراً لصورةٍ.

(٢)

ما كان أطيبَ العَرقَ يتصبَّبُ من جبيني! فأمسَحُه بمنديلي أو بيدي مثلما يفعَلُ الفلَّاحُ في حقلِهِ والعامِلُ في مَعمَلِهِ، بل ما كانَ أطيبَ الغِراءَ تتلَّوثُ به يدي! ولماذا؟ لأنِّي أشعرُ بلذَّةِ الإبداع.

إنِّي أصنعُ من أشياءَ جامدَةٍ أشياءَ رائعَةَ الجمالِ، أصمِّمُها من حيثُ الشَّكلُ والقياسُ والغايةُ، فما أنتهي منها حتَّى أعودَ لأتأمَّلَها، فإذا جاءَتْ كما أردتُّها، وكانتْ خاليةً منَ العيبِ، أشاعَتْ في نفسي البَهجةَ والسَّعادةَ، إنَّها بَهجةُ المُبدِعِ وسعادَتُهُ بجمالِ عَملِهِ، مُبدعٌ هو الذي يَصنَعُ المحراثَ، ومُبدعٌ هو الذي يَستَنْبِتُ بالمحراثِ البُقولَ والحُبوبَ والثِّمارَ، ومُبدعٌ هو الذي يسكُبُ الكلماتِ في قوالبَ منَ النَّثرِ أو الشِّعرِ، فإذا بها عُقولٌ تتوهَّجُ بالأفكارِ، وقلوبٌ تنبِضُ بالمشاعِرِ، والإنسانُ وحدَهُ من بين سُكَّانِ الأرضِ أوتيَ القُدرةَ على الإبداعِ، ولا حدَّ لقدراتِهِ ولا نِهاية، فما أعظمَهُ مِنْ مُبدِعٍ!

(١)

يُعَدُّ العالِمُ والطبيبُ علاءُ الدين بنُ أبي الحزمِ الدمشقيُّ المعروفُ بابنِ النفيسِ صفحةً مشرقةً في تاريخِ الت راثِ العلميِّ العربيِّ.

نالَ ابنُ النفيسِ شهرةً كبيرةً بسببِ عملِهِ ومؤلَّفاتِهِ وتجارِبِهِ، واعتمادِهِ على التجرِبةِ والملاحظةِ وتطبيقِ قواعدِ المنهجِ التجريبيِّ في إثباتِهِ الحقائقَ العلميَّةَ من مشاهدةٍ ورصدٍ ومقارنةٍ وملاحظةٍ وإجراءِ تجاربَ، وآمنَ بحريَّةِ القولِ وبضرورةِ الاجتهادِ، ولم يكنْ يخافُ من انتقادِ أخطاءِ كبارِ الأطبَّاءِ القدامى من أمثالِ ابنِ سينا وجالينوس. وكان يأبى على نفسِهِ أنْ يعلِّمَ تلاميذَه آراءً متوارَثةً عن عظماءِ القدماءِ، وهو لا يزالُ يشكُّ في صِحَّتِها، وبفضلِ هذه النَّظرةِ الشُّجاعةِ للعلم تمكَّنَ من دفعِ علمِ الطبِّ إلى آفاقٍ واسعةٍ.

(٢)

تركَ ابنُ النَّفيسِ للمكتبةِ العربيَّةِ مؤلَّفاتٍ كثيرةً في موضوعاتٍ مختلفةٍ، ومن هذه المؤلَّفات: كتابُ الشَّاملِ في الطبِّ، وكتابُ المهذَّبِ في الكُحلِ المجرّبِ، وكتابُ المختارِ من الأغذيةِ، وشرحُ القانونِ، وطريقُ الفصاحةِ؛ وهو كتابٌ في النحوِ وقواعدِ اللغةِ، وصنَّفَ في العلومِ العقليّةِ كتاباً صغيراً سمَّاهُ" فاضل بن ناطق"، دلَّ فيه على قدراتِه وصحَّةِ ذهنِه، وتمكُّنِهِ من العلومِ العقليَّةِ.

كانَ فضلُ ابنِ النفيسِ في الطِّبِّ على الغربِ كبيراً، فكانَ له الفضلُ في اكتشافِ الدَّ ورةِ الدَّ مويَّةِ الصُّغرى، وفي عصره لم تكنِ الاختصاصاتُ في علومِ الطِّبِّ قد تفرَّعَتْ وتبلورَتْ، فلم يكنْ هناك أطبَّاءُ للعينِ بسبَبِ صُعوبةِ أمراضِها والاضطرابِ في عملِ أدويتِها واستعمالِها إلى توفُّر خبرةٍ تامَّةٍ كالتي كانَ عليها ابنُ النفيس.

هذا هو ابنُ النفيسِ الطبيبُ الكحَّالُ الذي نراهُ بارعاً مُبتكِراً مُكتَشِفاً في طبِّ العيونِ مثلما هو في الطبِّ العامِّ، وفي صناعةِ الكِحالةِ التي بلغَتْ على يديهِ مكانةً ساميةً لا تدانِيها مكانةٌ.